

الكشاف

روي أن آزر خرج به في يوم عيد لهم فبدؤوا ببیت الأصنام فدخلوه وسجدوا لها ووضعوا بينها طعاما خرجوا به معهم وقالوا : بلى أن نرجع بركت الآلهة على طعامنا فذهبوا وبقي إبراهيم فنظر إلى الأصنام وكانت سبعين صنما مصطفة وثم صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب وفي عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسرها كلها بفأس في يده حتى إذا لم يبق إلا الكبير علق الفأس في عنقه عن فتادة : قال ذلك سرا من قومه وروي : سمعه رجل واحد " جذذا " قطاعا من الجذ وهو القطع . وقرء بالكسر والفتح . وقرء : " جذذا " جمع جذيد و " جذذا " جمع جذة . وإنما استبقى الكبير لأنه غلب في طنه أنهم لا يرجعون إلا إليه لما تسامعوه من إنكاره لدينهم وسبه لآلهتهم فيبكتهم بما أجاب به من قوله : " بل فعله كبيرهم هذا فسنلوهم " وعن الكلبي " إليه " إلى كبيرهم . ومعنى هذا : لعلمهم يرجعون إليه كما يرجع إلى العالم في حل المشكلات يقولون له : ما لهؤلاء مكسورة ومالك صحيحا والفأس على عاتقك ؟ قال هذا بناء على طنه بهم لما جرب وذاق من مكابرتهم لعقولهم واعتقادهم في آلهتهم وتعظيمهم لها . أو قاله مع علمه أنهم لا يرجعون إليه استهزاء بهم واستجهالا وأن قياس حال من يسجد له يؤهله للعبادة أن يرجع إليه في حل كل مشكل . فإن قلت : فإذا رجعوا إلى الصنم بمكابرتهم لعقولهم ورسوخ الإشراك في أعراقهم فإي فائدة دينية في رجوعهم إليه حتى جعله إبراهيم صلوات الله عليه غرضا . قلت : إذا رجعوا إليه تبين أنه عاجز لا ينفع ولا ضر وظهر أنهم في عبادته على جهل عظيم .

" قالوا من فعل هذا بئالتهنا إنه لمن الظلمين " .

أي أن من فعل هذا الكسر والحطم لشديد الظلم معدود في الظلمة : إما لجرأته على الآلهة الحقيقية عندهم بالتوقير والإعظام وإقا لأنهم رأوا إفراطا في حطمها وتماديا في الاستهانة بها .

" قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال لهم إبراهيم قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلمهم يشهدون " .

فإن قلت : ما حكم الفعلين بعد " سمعنا فتى " وأي فرق بينهما . قلت : هما صفتان لفتى إلا أن الأول وهو " يذكرهم " لا بد منه لسمع لأنك لا تقول : سمعت زيدا وتسكت حتى تذكر شيئا مما يسمع . وأما الثاني فليس كذلك . فإن قلت : " إبراهيم " ما هو . قلت : قيل هو خير مبتدأ محذوف أو منادى . والصحيح أنه فاعل يقال لأن المراد الاسم لا المسمى " على أعين الناس " في محل الحال بمعنى معاينا مشاهدا أي : بمرأى منهم ومنظر . فإن قلت : فما معنى

الاستعلاء في على قلت : هو وارد على طريق المثل أي : يثبت إثباته في الأعين ويتمكن فيها ثبات للراكب على المركوب وتمكنه منه " لعلهم يشهدون " عليه بما سمع منه . وبما فعله أو يحضرون عقوبتنا له . روي أن الخبر بلغ نمرذ وأشرف قومه فأمروا بإحضاره . " قالوا أنت فعلت هذا بئالهدنا بإبرهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فستلوهم إن كانوا ينطقون " .

هذا من معاريف الكلام ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني . والقول فيه أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم وإنما قصد تقريره لنفسه لها على ثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط : أنت كتبت هذا وصاحبك أُمي لا يحسنه الخط ولا يقدر إلا على خرمشة فاسدة ؟ ! .

فقلت له : بل كتبت أنت كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك وإثباته للآمي أو المخرمش لأن إثباته - والأمر دائر بينكما للعاجز منكما - استهزاء به وإثبات للقادر ولقائل أن يقول : غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مرتبة وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له . فأسند الفعل إليه لأنه هو الذي تسبب لاستهانتها بها وحطمه لها والفعل كما يسند إلى مباشرة يسند إلى الحامل عليه ويجوز أن يكون حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبهم كأنه قال لهم : ما تنكرون أن يفعله كبيرهم . فإن من حق من يعبد ويدعى إليها أن يقدر على هذا وأشد منه . ويحكى أنه قال : فعله كبيرهم هذا غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها . وقرأ محمد بن السميعة " فعله كبيرهم " يعني : فلعله أي فلعل الفاعل كبيرهم .

" فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظلمون "